سلوك المقربين
وأصول مقامات اليقين

للدكتور
فوزى عبد العظيم رسلان قمر
أستاذ ورئيس قسم الدعوة
والثقافة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، القريب المجيب ، المنزه عن الإدراك والإحاطة والتمثيل ، العليم الخبير ، الذى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٢) ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلاة وسلاما إلى يوم الدين .

وبعد

ففى بحث سابق (٣) تناولت بالدراسة : " سلوك المتقين وأصول مقامات اليقين " ، وفيه بينت معنى السلوك ، والتقوى ، ومعنى الاصل الذى يعنى الاساسى لكل سالك طريق الحق جل وعلا ، مستجيبا لامره ظاهرا وباطنا ، متحررا من أثر التبعة للغير – كل ما سوى الله عز وجل– ليكون عبدا خالصا لله رب العالمين ، ملتزما أمر الله – تعالى – لنبيه الخاتم – (ﷺ) – : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ .... ﴾ (٤) ، فتتحقق له العبودية ، ويكون أهلا للعطاء والمنح الإلهية ، فيدعو إلى الله – تعالى – على بصيرة ، كما بينت مفهوم المقام ، واليقين ، ومراتبه المنحصرة فى: علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ... أما أصول مقامات اليقين لدى المتقين ، فإنها لا تخرج عن التوبة ، ثم الصبر ، ثم الشكر ، ثم

---

(١) سورة الانعام الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى من الآية : ١١ .

(٣) حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد السابع (الثالث والعشرون) .

(٤) سورة الانعام من الآيتين : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الرجاء، وبينت أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه ، وينتقل إلى الثانى بعده ، كمنازل السير الحسى ، فهذا غير كائن فيما يتعلق بالسير إلى الله – تعالى – إذ نرى من المقامات ما يكون جامعا لمقامين أو أكثر ، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات ، بحيث تستجمع فيه، ومثال ذلك : مقام (الشكر) هذا المقام جامع ، إذ هو فوق (الرضا) ، ويلازمه (الصبر) و (الإنابة) و (الرجاء) ، ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ، ونصف شكر ، والصبر داخل فى الشكر ، وبذلك كان الإيمان شكرا ، والشاكرون كما ذكرهم المولى – عز وجل – فى القرآن الكريم قلة ، قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١)

والسالكون إلى الله – عز وجل – حسب منازلهم من السلوك ينقسمون إلى نوعين :

المتقون أولا ، ثم المقربون ثانيا ، هذان النوعان يمثلان سلوك المحسنين ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) ، وفى بيان ذلك روى عن عمر – رضى الله عنه – قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله – (ﷺ) – ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى (ﷺ) فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ): الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره،

---

(١) سورة سبأ من الآية : ١٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٦٩ .

قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ؟ قال : فأخبرنى عن اماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان، ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "(١) فمجموع هذا الدين فى هذه المراتب بداية ونهاية ، بداية تنطلق من أعمال الجوارح ، ونهاية إلى أعمال القلب الذى هو محل نظر الرب سبحانه .

وإذا كان سلوك المحسنين لا يخرج عن عبادة الله تعالى ، المبينة فى قوله : ﴿ أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴾ فإن المتقين من المحسنين هم المتمسكون بمقامات اليقين بداية ، أما المقربون منهم فإنهم قد اعتلوا بمقامات اليقين نهاية ، إنهم قد بلغوا درجات الكمال ، وهكذا مراتب الإيمان جميعا ... (٢) وعلى هذا فإن كلا من النوعين لا يحصى تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله – عز وجل – فشأنهم رفيع ، ودرجاتهم عالية ، إلا أن المقربين منهم أعظم شأنا وارسخ مكانة ، ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٣) وفى ذلك إشارة إلى أن ما فى المبتدأ مالا يحيط العلم به ، ولا يخبر عنه ، ولا يعرف منه إلا نفس المبتدأ ، لذلك كان الإخبار عنهم إلا بنفسهم ، فإن حالهم وما هم عليه من السير لا انقطاع له ، والسابقون هم المقربون .....

---

(١) صحيح مسلم : ٢٨/١ ، ٢٩ – ك / الإيمان.

(٢) من المعلوم أن الإيمان يزيد وينقص ، وذلك كما جاء فى قول الله تعالى : " وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فاما الذين امنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ... " [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ١٠ ، ١١ .

ولإتمام أصول مقامات اليقين جاء هذا البحث : سلوك المقربين وأصول مقامات اليقين ، والمتمم لما سبقه – كما اشرنا – .

أسأل الله – عز وجل – التوفيق ، وأن يجعلنا من السابقين المقربين مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، اللهم آمين .

المقربون

بيان وتعريف :

جاء فى المعجم الوسيط : (قَرَبَ) الشئ قُرْباً ، وقُربانا : دنا منه. و (قَرُبَ) الشئُ – قرابَة وقُربا ، وقُرْبةً ، وقُربى ، ومَقْربةً : دنا . فهو قريب . ويقال : قَرُب منه ، وقَرُب إليه (١).

يقول صاحب اللسان : القرب نقيض البعد . قرب الشئُ بالضم ، يقربُ قربا وقُربانا وقِرْبانا ، أى دنا ، فهو قريب (٢) .

والتقارُب : ضد التباعد ، ففى الحديث : " إذا قرب الزمان ، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب " (٣) ، قال ابن الأثير : أراد اقتراب الساعة ، وقيل : اعتدال الليل والنهار ، وتكون الرؤيا فيه صحيحة لاعتدال الزمان .

واقْتَرب : افتعل ، من القُرب ، وتقارب : تفاعل منه ، ويقال للشئ إذا ولى وأدبر : تقارب ، وفى الحديث : " إذا اقتربت الساعة تقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة إلى الجمعة كاحتراق السعفة فى النار " (٤) أراد يطيب الزمان حتى لا يستطال ، وأيام السرور والعافية قصيرة ، وقيل : هو كناية عن قصر الاعمار ، وقلة البركة .

---

(١) المعجم الوسيط : ٢ / ٧٥٠ .

(٢) لسان العرب : ابن منظور ٥/ ٣٥٦٦ مادة (قرب) .

(٣) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وأحمد عن أبى هريرة – ﷺ – (الجامع الكبير – السيوطى – ١ / ٣٩٩) .

(٤) رواه أبو هريرة – ﷺ – أخرجه أبو يعلى (الجامع الكبير – السيوطى ٣٩٩/١) .

ويقال : قدحيًا وقرّب : إذا قال : حياك الله وقرب دارك . وفى الحديث : " من تقرب إلى الله شبرا تقرب إليه باعا ، ومن أقبل إلى الله ماشيا أقبل إليه مهرولا ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى وأجل "(١) والمراد بقرب العبد من الله عز وجل ، القرب بالذكر والعمل الصالح ، لاقربُ الذات والمكان ، لأن ذلك من صفات الأجسام ، والله يتعالى عن ذلك ويتقدس " (٢) .

(القُرْبَةُ) : ما يتقرب به إلى الله تعالى من أعمال البر والطاعة . (ج) قُرب ، وقربان . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ (٣) .

(القَرِيبُ) : الدانى فى المكان أو الزمان أو النسب ، ويقال : مكان قريب . ومحلة قريبة . وهما وهم وهن قريب . وفى التنزيل العزيز : ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ (٤) .

من هذا البيان اللغوى ، لابد لنا من وقفة متأنية أمام هذا اللفظ (قرب) ومن اتصف به ، وذلك من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، ليتضح لنا المراد ، إذ اللفظ قد اشترك فيه واتصف به صنف الملائكة ، وصنف من البشر .

وبالتأمل فى القرآن الكريم نجد لفظ (المقربون) بالرفع قد ورد أربع مرات فقط ، وذلك لعلوهم وارتفاع مكانتهم ، وقلة وجودهم بين العباد ، وندرتهم بين عالمهم ، هذه الآيات هى :

---

(١) رواه أحمد عن أبى سعد - ﷺ -(الجامع الكبير - السيوطى ٣٦٠/١) .
(٢) لسان العرب – ابن منظور : ٣٥٦٦/٥ وما بعدها .
(٣) سورة التوبة من الآية : ٩٩ .
(٤) المعجم الوسيط : ٧٥١/٢ ، سورة الأعراف آية رقم : ٥٦ .

١ - ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ كَلا إِنَّ كِتَابَ الابْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٤) .

كما ورد لفظ (للقربين) اربع مرات أيضا ، وهى فى قول الله تعالى :

١ - ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٥) .

٢ - ﴿ وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة النساء من الاية : ١٧٢ .
(٢) سورة الواقعة الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٣) سورة المطففين الآيات : ١٨ – ٢١ .
(٤) سورة المطففين الآيات : ٢٦ – ٢٨ .
(٥) سورة آل عمران من الآية : ٤٥ .
(٦) سورة الأعراف الآيتان : ١١٣ – ١١٤ .

٣ - ﴿ فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١) .

٤ - ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾(٢) .

هذه هى الآيات القرانية الشريفة الواردة فى المقربين ... وهى كما ترى قد حوت العالم العلوى فى صورة الملائكة ، والعالم السفلى فى صورة الإنسان ، ولا خلاف فى أن شرف الرتبة للعالم العلوى هو وجود الملائكة فيه ، كما أن شرف الرتبة للعالم السفلى هو وجود الإنسان فيه ، وتحقيق ما هية الملائكة وحقيقتهم أمر مختلف فيه ، إلا أن الفطرة تشهد بأن العالم العلوى أشرف فى هذا العالم السفلى ، وتثبت وجود هذا العالم العلوى من جهة المشاهدة والمكاشفة ... ، ومما يدل على ذلك حال الرؤيا الصادقة ... فهذه وجوه إقناعية تثبت وجود العالم العلوى ، أما الدلائل القطعية فلا نزاع فيها بين الأنبياء فى إثبات الملائكة ، وهذا أمر مجمع عليه بينهم، ولقد ذكر القرآن الكريم أصنافهم وأوصافهم ...

أما الأصناف :

فأحدها : حملة العرش ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ... ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤١، ٤٢ .
(٢) سورة الواقعة : الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) سورة الحاقة الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

وثانيها : الحافون حول العرش قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ... ﴾ (١) .

وثالثها : أكابر الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

ومن جملة وصف جبريل – عليه السلام – أن الله – عز وجل – قد ذكره قبل سائر الملائكة وهذا واضح وجلى – فى الآيات السابقة – ، كما أنه صاحب الوحى ، المرسل من قبل الله – تعالى – إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٣) .

ومن ثم فجبريل – عليه السلام – صاحب الوحى والعلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق والقوت ، والعلم الذى هو الغذاء الروحانى أشرف من الغذاء الجسمانى ، فلزم بأن يكون جبريل أشرف من ميكائيل... يزيد هذا بيانا ووضوحا :

= أن الله – عز وجل – جعله ثانى نفسه قال تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٧٥ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .
(٣) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٢ – ١٩٤ .
(٤) سورة التحريم الآية : ٤ .

= أن الله – عز وجل – سماه روح القدس ، قال تعالى فى حق عيسى – عليه السلام – : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (١) .

= أن الله – عز وجل – جعله لنصر أوليائه ، ولقهر أعدائه مع ألف من الملائكة مردفين .

= أن الله – عز وجل – مدحه بصفات ست ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٢) ، وكونه مطاعا وأمينا كان إماما للملائكة ....

ومن جملة أكابر الملائكة إسرافيل ، وعزرائيل – عليهما الصلاة والسلام – ، وقد ثبت ذلك بالاخبار الصادقة عن رسول الله (ﷺ) حيث ورد أن عزرائيل هو ملك الموت ، على ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٣) ومعه ملائكة بأمر الله موكلون معه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٤) .

أما إسرافيل فإنه صاحب الصور – حيث ورد ذلك بالاخبار الصادقة أيضا – ، يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ١١٠ .
(٢) سورة التكوير الآيات : ١٩-٢١ .
(٣) سورة السجدة الآية : ١١ .
(٤) سورة الأنعام الآية : ٦٢ .
(٥) سورة الزمر الآية : ٦٨ .

رابعها : ملائكة الجنة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١) .

خامسها : ملائكة النار ، قال تعالى فى النار وملائكتها : ﴿ ..وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ...﴾ (٣) ومالك رئيسهم كما ذكرت الآية الكريمة ، وفيما يتعلق بأسماء جملتهم فهم الزبانية، قال تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (٤) .

سادسها : الموكلون ببنى آدم ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ... ﴾ (٦) ، وقال جل شانه : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾ (٧) .

---

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣، ٢٤ .
(٢) سورة المدثر الآيات : ٢٧-٣١ .
(٣) سورة الزخرف من الآية ٧٧ .
(٤) سورة العلق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .
(٥) سورة ق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .
(٦) سورة الرعد الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٧) سورة الأنعام . من الآية : ٦٢ .

سابعها : كتبة الأعمال ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١) .

ثامنها : الموكلون بأحوال العالم ، وهم المرادون بقول الله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا) (٢) ، وبقوله جل شأنه: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٣) ، وبقوله سبحانه : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤) .

أما أوصاف الملائكة :

أحدها : أن الملائكة رسل الله ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء....﴾ (٥) أما ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ...﴾ (٦) ، فإن مِنْ هنا للتبيين لا للتبعيض .

ثانيها : قرب الملائكة من الله ، وأنهم عباد مكرمون ، يسبحون الله ليل نهار لا يفترون ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) سورة الإنفطار الآيات : ١٠-١٢ .
(٢) سورة الصافات الآيتان : ١ ، ٢ .
(٣) سورة الذاريات الآيات : ١-٤ .
(٤) سورة النازعات الآيات : ١-٥ .
(٥) سورة فاطر من الآية : ١ .
(٦) سورة الحج من الآية : ٧٥ .

وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

ثالثها : وصف طاعتهم من وجوه ، الاول : حكاية عنهم وذلك كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ....﴾ (٣) ، وفى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (٤) ، الثانى : مبادرتهم بالاستجابة لله تعالى حين امر تعظيما له ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(٥) ، الثالث : أنهم لا يفعلون شيئا إلا بأمر الله تعالى ووحيه ، قال تعالى : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٦).

رابعها : وصف قدرتهم من وجوه ، الأول : أن حملة العرش وهم ثمانية ، يحملون العرش ، والكرسى ، ثم إن الكرسى الذى هو أصغر من العرش ، أعظم من جملة السموات السبع ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (٧) ، الثانى : أن علو العرش شئ لا يحيط به الوهم ، ويدل على ذلك ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة البقرة من الآية : ٣٠ .
(٤) سورة الصافات الآيتان : ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٥) سورة ص الآية : ٧٣ .
(٦) سورة الأنبياء الآية : ٢٧ .
(٧) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ .

الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) .

الثالث : نرى فى قول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (٢) غيبا مشاهدا ، فصاحب الصور يبلغ فى القوة إلى حيث إن نفخة واحدة منه يصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، وبالنفخة الثانية منه يعودون أحياء ، فمن أين هذه القوة ؟؟ ، وما حقيقة صاحب الصور ؟... كذلك الحال بالنسبة لجبريل - عليه السلام ، وما أعطاه الله - عز وجل - من قوة يعجز وصفها ...

خامسها : وصف القرآن الكريم خوفهم من الله - عز وجل - ويدل على ذلك وجوه ، الأول : أنهم مع كثرة طاعتهم واستجابتهم لربهم ، والتزامهم بأمره ، فى وجل تام حتى كأن عبادتهم معاصى ، يدل على ذلك ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣) ، وفى قوله جل شأنه : ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤) الثانى : حينما يكشف الله عنهم ما هم فيه يكون الحق ... قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٥)

---

(١) سورة المعارج الآية : ٤ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٦٨ .
(٣) سورة النحل الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) سورة سبأ من الآية : ٢٣ .

من هذا نقول بوضوح تام :

إذا كانت الملائكة أنواعا وأصنافا – كما تبين – وهم المقربون ، فإن حقيقة كنههم لا يعلمها إلا الله – عز وجل – إذ الملائكة خلق غيبي ، ومن ثم وجب الإيمان بهم ، إذ منكرهم كافر ، لإنكاره معلوم من الدين بالضرورة ... قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١)

والتحدث عن المقربين من الملائكة لا سبيل لنا به ، إذ هو – كما بينا – خلق غيبي ، أعطاه الله من القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، خارجون عن الوصف المعهود بيننا ، ودليلنا على ذلك حديث جبريل للنبي (ﷺ) وسؤاله عن الإسلام ، والإيمان ،والإحسان ، ولم يعرفه أحد من الصحابة ... وقول النبي (ﷺ) بعد أن انصرف ، إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم ، بذلك ثبت وجودهم ، مع عدم معرفتنا بهم ، إلا من خلال الشرع الحكيم .

ومن ثم كان مدار حديثنا عن المقربين من المتقين المؤمنين ، إذ هو غاية المراد ، بعد أن بينا اصناف وأوصاف الملائكة المقربين .. ولقد جاء في تعريف القرب ما يلي :

يقول الشيخ عبد الرزاق القاشاني : (القرب عبارة عن الإقامة على الموافقة لأوامر الله والطاعة ، والإتصاف في دوام الأوقات بعبادته)(٢) .

ثم يقول رضي الله عنه : " إلا أنه لا يعد من أهل القرب من وقف مع رؤية قربه ، لأن رؤية الرب حجاب عن القرب ، فمن شاهد لنفسه محلا فهو محجور به " (٣) .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢، ٣ .

(٢ ، ٣) لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام – عبد الرزاق القاشاني ٢/٢٢٩ .

ويقول : " وقد يطلق القرب على حقيقة قاب قوسين " (١) .

من هذا التعريف نرى أن المقرب لا يخرج عن الإقامة مع الموافقة ، لأوامر الله تعالى ، والطاعة له ، والإتصاف فى سائر أوقاته بالعبادة ، مراعيا فى ذلك الوقوف عند رؤية قربه ، وإلا فقد يعكر به ، ورؤية الله حجاب عن القرب ... إذ فى الرؤية يكون التحديد ، والتحيز والوصف ، وهذا كله محال فى حقه جل شانه ، فسبحانه خالق الزمان والمكان ، وتنزه عن كل ذلك ، لا يحده زمان ، ولا يقله مكان ، بل كان ولا مكان ولا زمان ، وهو على ما عليه كان ...

ولقد جعل الله – عز وجل – العبودية وصف الكمل من خلقه ، الذين هم فى مقام القرب منه ميزون ، وبالطاعة موصوفون ، وعلى هديه سائرون ، قال تعالى : ﴿ لن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا﴾ (٢) ، وقال جل شانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٣) والمراد أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته ، ولا ينقطعون عنها ... كذلك الخلص من عباد الله المقربين ، لا ينقطعون عن عبادته .

وللعبودية مراتب حسب العلم والعمل ، يقول ابن القيم أما مراتبها العملية فمرتبتان :

المرتبة الأولى : لأصحاب اليمين .

---

(١) لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام – عبد الرزاق القاشانى ٢/٢٢٩ .

(٢) سورة النساء : الآية : ١٧٢ .

(٣) سورة الأعراف : الآية : ٢٠٦ .

المرتبة الثانية : مرتبة السابقين المقربين .

فأما مرتبة أصحاب اليمين : فاداء الواجبات ، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات ، وبعض المكروهات وترك بعض المستحبات .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والمكروهات ،زاهدين فيما لا ينفعهم فى معادهم ، متورعين عما يخافون ضرره .

وخاصتهم : قد انقلبت المباحات فى حقهم طاعات وقربات بالنية – إذ استحضار النية الصادقة تتحول بها المباحات إلى طاعات – كما قال بعض السلف : (إنى لأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى) ، أى أنه يتقوى بالنوم على قيام الليل – فليس فى حقهم مباح متساوى الطرفين – بل كل أعمالهم راجحة - ، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات . وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات ، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله) (١) .

ولقد اتفقت الأمة على وجوب النصح فى العبودية ، ومداره بذل الجهد فى إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى عنه ، وأصل هذا واجب ، إذ الدين النصيحة ، وكماله مرتبة المقربين .

من هذا نقول :

المقربون : هم الصفوة من خلق الله – تعالى – المفردون ، الذين هم قد ألفوا طاعته ، وبذلوا فيها الجهد ، ولم يعرفوا الرخص أو المباحات، أخذوا أنفسهم بالشدة تقربا إلى الله تعالى ، دون إلزام منهم لغيرهم ، حاسبوا أنفسهم على الحركات والسكنات والخواطر ، التى تعوق

(١) مدارج السالكين – ابن القيم ١/١١ .

سلوكهم فى القرب من الله تعالى ... وفى القرآن الكريم آيات جعلها المقربون أساسا فى القرب ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(١)، وقال جل شانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٢) ، وقال سبحانه: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ (٣) .

يقول أبو نصر السراج فى كتاب اللمع ، أهل القرب على ثلاثة أحوال :

١ – المقربون إلى الله تعالى بأنواع الطاعات ، لانهم يعرفون أن الله عالم وقريب منهم ، وقادر عليهم .

٢ – المتحققون : الذين إذا رأوا شيئا رأوا الله أقرب إلى ذلك الشئ منهم .

٣ – الاكابر وأهل النهاية : وهم الذين لابد وأن يجتازوا مرحلة المبتدئين ،ويفنوا بحيث لا يشعرون بقربهم ، أى أن حال القرب ذاتها تُنسى، وأن العبد لا يعرف انه فى حال القرب لذهوله) (٤) .

ويقول السيد الشريف الجرجانى فى كتاب التعريفات فى تعريف القرب :

" والقرب هو القيام بالطاعات ، والقرب المصطلح عليه هو قرب العبد من الله تعالى ، بكل ما تعطيه السعادة ، لا قرب الحق من العبد ،

---

(١) سورة البقرة من الاية : ١٨٦ .
(٢) سورة ق من الاية : ١٦ .
(٣) سورة الواقعة . الاية : ٨٥ .
(٤) اللمع : لأبى نصر السراج /٤٥٩ .

فإنه من حيث دلالة الآية : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ قرب عام أسعيدا كان العبد أم شقيا ، وحاصل هذا : أن القرب عبارة عن زوال الحس ، وتلاشى النفس ، وأن هذا القرب ليس هو القرب الزمانى ، أو المكانى"(١)

فعن أنس وأبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال : قال الله عز وجل: " إذا تقرب إلى العبد شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلى ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإذا أتى إلىّ مشيا أتيته هرولة " (٢).

وعن القرب فى هذا الحديث قيل : القرب هنا نظير ما تقدم فى قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٣) والمراد به قرب المرتبة ، وتوفير الكرامة . قال الراغب : قرب العبد من الله التخصيص بكثير من الصفات التى يصح أن يوصف الله بها ، وإن لم تكن على الحد الذى يوصف به الله تعالى ، نحو الحكمة ، والعلم ، والحلم ، والرحمة ، وغيرها ، وذلك يحصل بإزالة القاذورات المعنوية من الجهل ، والطيش ، والغضب وغيرها بقدر طاقة البشر ، وهو قرب روحانى لا بدنى ، وهو المراد بقوله: (إذا تقرب العبد منى شبرا تقربت منه ذراعا) (٤) ، لقد بادروا ركوب العزائم بالعزم ، وقوة الحزم ، فهجروا المنام ، وقاموا لله بالخدمة حتى وصلوا إلى مقام القرب ، ومحل الأنس ، فأعطاهم المولى – عز وجل – الدرجة العليا ، والمحل الأدنى ، فكانوا لله وبالله .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب ، لعظيم القرب ، كمن يشم رائحة المسك ، فلا يزال يدنو منها ،وكلما دنا منها تزايد ريحها ، فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه " (٥).

---

(١) التعريفات : الجرجانى / ٤٨٩ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة النجم : الآية : ٩ .

(٤) الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية : عبد الرؤف المناوى / ١٢، ١٣ .

(٥) لطائف المنن : ابن عطاء الله السكندرى /٥١ .

أصول مقامات المقربين

١ – الزهد : -

جاء فى المعجم : (زَهِدَ) فيه ، وعنه – زُهْدًا ، وزَهَادَةً : أعرض عنه وتركه . (زَهَّده) فيه ، وعنه : جعله يزهد . (تَزَاهَدُوا) الشئ : احتقروه واستقلوه . (تَزَهَّد) : صار زاهدا . و –: تعبَّد . (الزَّاهِدُ) : العابد (ج) زُهْدٌ ،وزُهَّادٌ . الزَّهَادَةُ فى الشئ خلاف الرغبة فيه . و :الرضا باليسير مما يتيقن حله ، وترك الزائد على ذلك لله تعالى (١) .

فالزهد هو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خير منه ، لكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا وهو المقصود .

وعلى هذا فالزهد : ترك الأشياء لا لغرض ، فإنك إن زهدت فى شئ لطلب شئ آخر فأنت طامع لا زاهد ، وهو رأس كل طاعة ، فإنه خلاف حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة .

والزهد عند العوام هو : خلو اليد من المال . وعند الخواص : خلو القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى . وعلى هذا قيل : ليس الزاهد من لا يملك الدنيا ، إنما الزاهد من لا تملكه الدنيا ، فكم من مالك للدنيا زاهد فيها ، قد محيت آثار حبها من قلبه ...

والزهد لا يكون فى الحرام . ولا فى الشبهة ، لأن تركهما فريضة، وإنما الزهد يكون فى ترك الحلال . وفراغ القلب منه ، وهذا زهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والخواص من أولياء الله تعالى . وهذا وارد فى القرآن الكريم حيث خاطب الله – عز وجل – نبيه الخاتم (ﷺ) بقوله

---

(١) المعجم الوجيز /٢٩٤ مادة (زهد) .

سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الاخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) ، وقال جل شأنه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الاخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (٢) ، ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما روى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال رسول الله (ﷺ) ، قال الله – عز وجل – : " ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك، لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع ، إذا أصبحت معافى فى جسدك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء"(٣) ، قال الزمخشرى : والمعنى الاشتغال بما يقربك إلى الله تعالى"(٤).

ولقد سمى الله – عز وجل – أهل الزهد بالعلماء ، وجعل هذا من سمتهم ، وهذا واضح من وصف قارون حينما خرج على قومه فى زينته قائلا :﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾(٥) ، فكان الرد من العلماء العارفين أهل القرب من الله – عز وجل – الزاهدين فى الدنيا ، كما ذكر القران الكريم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾(٦) ، قيل : هم الزاهدون فى الدنيا ، الصابرون الذين لهم عقبى الدار ، كما قال الله – تعالى – ذ م :

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٠ .

(٣) الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية : عبد الرؤف المناوى ٧/ .

(٤) المصدر السابق : نفس الصفحة .

(٥) سورة القصص من الآية : ٧٨ .

(٦) سورة القصص الآية ٨٠

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١) .

وإذا كان الصبر من سمات المقربين المتقين ، فإنه قد حوى شتى أحوالهم وتقلباتهم فى هذه الحياة الدنيا ، لعلمهم أن الصبر سر العطاء فى الآخرة ، حيث قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) ، وهذا عين فقههم الغالب على سلوكهم ..

وقد قيل : تفاخر الغِنَى مع الفقر ، فقال الغِنَى : أنا وصف الرب الكبير ، فما أنت أيها الحقير ؟ ، فقال الفقير : لولا وصفى لما تميز وصفك، ولولا تواضعى ما رفع قدرك ، فأنا وصفى وسم بذل العبودية ، وأنت وصفك نازع الربوبية ، ومن نازع قصم ، ومن سلَّم سلِمَ .. ولله در القائل:

ألم تر أن الفقير يرجى له الغنى

وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

فمن افتقر إلى الله استغنى به عن كل شئ ، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شئ ، ومن افتقر إلى كل شئ ، فقد أوحشه كل شئ ، ولم يتعوض عن الله بشئ من كل شئ ..

لكل شئ إذا فارقته عوض

وليس لله إن فارقت من عوض (٣)

---

(١) سورة الرعد من الآيتين : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ١٠ .

(٣) قوانين حكم الاشراق : جمال الدين محمد أبى المواهب / ٣٤-٣٦ .

ومن ثم فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (١) ، قيل : معناه أيهم أزهد فيها ، بذلك وصف الزهد بأنه من احسن الاعمال ، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٢) ، ومن الاحاديث الدالة على طلب الزهد ، وعلو هذا المقام ، وأهميته لدى السالكين المقربين ، ما روى عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله (ﷺ) : "افلح من هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا وقنع به " (٣) ، وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله (ﷺ) قال : " اللهم اجعل رزق آل محمد فى الدنيا قوتا " (٤) ، وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله (ﷺ): " كن فى الدنيا كأنك غريب ، او عابر سبيل " (٥) ، وزاد أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة : " وعد نفسك من أهل القبور " (٦).

يقول الشيخ محمود خطاب السبكى :

" شبه الناسك السالك بالغريب الذى ليس مسكن يأويه يجامع عدم الطمأنينة فى كل ، بل دائما قلبه متعلق بالرجوع لوطنه ، فهو قد ذهب فى الغربة ليكتسب لأهله ما يتبسط به فى وطنه ، فكذلك المؤمن الناسك الذى يريد الآخرة ، ينبغى له أن يكون مسارعا فى اكتساب ما ينفعه فى وطنه الدائم وهو الآخرة ، فإن من انشغل فى غربته باللهو ولم يكتسب ربحا رجع إلى أهله بدون ربح ، فيعيش معهم فى كد وتعب

---

(١) سورة الكهف . اية رقم : ٧.

(٢) سورة طه . الاية : ١٣١ .

(٣) جامع الأحاديث : السيوطى رقم ٣٠٩٦ / ١٨٦ .

(٤) رواه أحمد ، ومسلم ،والترمذى ، وابن ماجة ، والبيهقى فى السنن .

(٥ ، ٦) الجامع الصغير : السيوطى ٢/٩٧ وصححه .

ونكد ، فكذلك من اشتغل بالدنيا بهوى نفسه ، وطمع فيها يرجع إلى الاخرة صفر اليدين ، فلم يجد ما ينفعه ، بل ما يضره ... ، ثم ترقى واضرب عن الزيب إلى عابر السبيل ، فـ (او) بمعنى : " بل " أى بل عابر طريق فهو مبالغة فى شدة التعلق بالآخرة ، والزهد فى الدنيا ، لأن الغريب قد يسكن فى بلد الغربة بخلاف عابر السبيل "

ثم يقول رحمه الله تعالى :

" فهذا الحديث أصل فى الحث على الفراغ عن الدنيا ، والزهد فيها ، والاحتقار لها ، والقناعة فيها بالبلغة ، أى : لا تركن إلى الدنيا ، ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب فى غير وطنه " (١) .

فعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله (ﷺ) : "لَسْتُ من الدنيا ، وليست الدنيا منى ، إذ بعثت والساعة نستبق" (٢) .

وعن فضالة بن عبيد أن رسول الله (ﷺ) قال : " لو تعلمون مالكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة " (٣) .

إن السلوك فى كل مقام من مقامات الطريق الى الله تعالى ، يجعل السالك مستعدا للوصول إلى مقام آخر ، وعلى ذلك فإن الورع من مقتضيات الزهد ومن ضروراته ، ولم لا والتعلق بالدنيا رأس كل خطيئة... وأن ما ورد فى ذم الدنيا ما يجعل العبد مقبلا على الله تعالى ، تاركا ما ذمه فيها ، فقد قال (ﷺ) : " الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا

(١) أعذب المسالك المحمودية : السبكى ٢٨٠/١ .
(٢) الجامع الصغير : السيوطى ١٣٣/٢ وصححه .
(٣) الجامع الصغير : السيوطى ١٣٠/٢ رواه الترمذى وصححه .

ما كان منها لله عز وجل " (١) ، وفى رواية أخرى : "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما أو متعلما "(٢) . فما كان لله – عز وجل – منها فهو له – أى للإنسان- لا عليه ، مأجور فيه ، ومن ثم كان المقرب إلى الله – تعالى – فى سباق وفرار منها إليه سبحانه ، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣)

والزهد متفاوت بين السالكين ، باعتبار نفسه ، والمرغوب فيه، والمرغوب عنه . فتفاوته باعتبار نفسه على ثلاث درجات :

الأولى : إما أن يزهد السالك فى الدنيا وهو لها راغب ، فهذه أدناها.

الثانية : أن يزهد فى الدنيا رغبة منه لحقارتها ، وطلبا لمرغوب يراه السالك أفضل وهذه الدرجة أعلى من الأولى .

الثالثة : أن يزهد السالك فى الدنيا طواعية ، فلا يرى أنه ترك شيئا ، إذ أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ... وهذه أعلى الدرجات .

وفيما يتعلق بتفاوت الزهد – بين السالكين – باعتبار المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات أيضا :

الأولى : أن يزهد السالك فى الدنيا رغبة فى النجاة من النار.

الثانية : أن يزهد السالك فى الدنيا رغبة فى ثواب الله – تعالى – ونعيمه الأخروى .

---

(١) المصدر السابق ١٥٦/٢ عن جابر وصححه .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة عن ابن مسعود وحسنه.

(٣) سورة الذاريات الآية: ٥٠ .

الثالثة : أن يزهد السالك فى الدنيا رغبة فى الله – عز وجل – وفى لقائه ، فلا يطلب غيره ، إذ طلب غيره شرك خفى ، وكل مطلوب معبود .

أما تفاوت الزهد – بين السالكين – باعتبار المرغوب عنه ، فقد تعدد ذلك وورد ذكره فى القرآن الكريم فى آية واحدة سبعة أنواع ، قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) .

ثم رده إلى خمسة أنواع ، فقال عز وجل:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ..﴾(٢)

ثم رده فى موضع اخر إلى اثنتين ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ (٣) وفى النهاية رد الكل إلى واحدة ، فقال جل شأنه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤) .

فالهوى هو أساس حظوظ النفس فى الدنيا ، ومن ثم وجب أن يكون الزهد فيه .

يقول أبو سليمان الدارانى : " من شغل بنفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين ، ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام العارفين ، والزاهد لابد وأن يكون فى احد هذين المقامين " .

---

(١) سورة ال عمران الآية: ١٤ .
(٢) سورة الحديد من الآية : ٢٠ .
(٣) سورة محمد من الآية : ٣٦ .
(٤) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

هذا ولقد جاء ذم الدنيا وعدم النظر لها ، والزهد فيها ، ليس لذتها ، فالله – عز وجل – قد خلقها لحكمة ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ....﴾ (١) ، كما لم يخلقنا عبثا ، حيث قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) ... لقد جاء ذم الدنيا الشاغلة عن الله – عز وجل – وعن طاعته ، بحيث انشغل العبد بها ، فألهته وابعدته عن حقيقة وجوده ، والكامل من العباد من جد فى طاعة الله – عز وجل – ، وبلغ فيها اعلى الدرجات دون أن تبعده عن طاعة مولاه ، ومن ثم فهى له ممدوحة ، أما من أبعدته عن طاعة الله – عز وجل – فهى له مذمومة وذلك بإجماع العقلاء من عباد الله – تعالى – وقد أيد ذلك القرآن الكريم ، فقال جل شانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (٣) .

ولا غرو فإن من منع من الدنيا فقد سلم ، ومن لم يشغل نفسه بها فقد سلم ، حيث جعل الله – عز وجل – الآخرة لتصحيح موازين الدنيا ، وسيعوض الصابر على صبره ، والمحروم على حرمانه شريطة التمسك بالإيمان ، والرضا بما قسم الله – تعالى – ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله (ﷺ) " يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام " (٤) ، أى بنصف يوم ، وذلك لما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥) .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٩١ .
(٢) سورة المؤمنون من الآية : ١١٥ .
(٣) سورة الشورى الآية: ٢٠ .
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح
(٥) سورة السجدة الآية: ٥ .

ومن ثم فقد فهم هذا المراد عن الله – عز وجل – السالكون فى طريقه إليه ... إذ الدنيا عندهم ليست هى الغاية ، فغايتهم الرضا عنهم فى هذه الدار ، ثم محبتهم ، ومن رضى عنه مولاه وأحبه ، فلن يشقى أبداً ، ولقد كان هذا سلوك أصحاب رسول الله (ﷺ) ، وأحوالهم تنبئ عن ذلك ، فعن أبى عتبة الخلوانى قال : "الا أنبئكم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله (ﷺ) : أولها : لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة ، والثانية : كانوا لا يخافون عدوا قلوا أو كثروا ، والثالثة : لم يكونوا يخافون عوزا من الدنيا ، وكانوا واثقين برزق الله تعالى " (١) ، ولقد مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (٢).

ولأهل الحقائق – وهم كائنون فى كل عصر ومصر – هم فى رسول الله (ﷺ) وفى أصحابه الأسوة الحسنة ، يقول الطوسى فى منهج عمر – رضى الله عنه – وتعلقه بالمعنى وتحققه به ... اختياره لبس المرقعة ، والخشونة ، وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات وإظهار الكرامات ... وقيامه بالحق بين الخلق ، ومحق الباطل ، ومساواة الأقارب والأباعد فى الحقوق ، والتمسك بالأشد فى الطاعات ... " ويقول طلحة ابن عبد الله : " ما كان عمر بأولنا إسلاما ، ولا أقدمنا هجرة ، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا ، وأرغبنا فى الآخرة " (٣) ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٤).

---

(١) اللمع : الطوسى / ١٦٧ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٠ .

(٣) اللمع : الطوسى / ١٦٨ .

(٤) سورة الأعلى الآيات : ١٤ – ١٧ .

٢ – التوكل :

جاء فى المعجم الوسيط : (وَكَلَ) بالله – (يَكِلُ) وكْلاً : استسلم إليه . و – إليه الأمرَ وَكْلاً ، ووكولاً : سَلَّمَهُ .. و – فوضه إليه واكتفى به. وفى الحديث : " اللهم لا تكلنا إلى انفسنا طرفة عين " .

(أَوْكَلَ) على الله : وَكَلَ له . وخلاه كله عليه . (وَكَّلَهُ) : استكفاه أمْرَه ثقة به .

(أتكَلَ) على الله : استسلم إليه . (تواكل) القوم : اتكل بعضهم على بعض .

(الوكيل) من أسماء الله تعالى ، وهو الكفيل بأرزاق العباد . و- الحافظ . و – الكفيل . و – الذى يسعى فى عمل غيره ، وينوب عنه فيه

و – (فى اصطلاح أهل الحقيقة) : وثِقَ بما عند الله ، ويئس بما فى أيدى الناس " (١) .

من هذا البيان اللغوى نرى :

التوكل : " هو الثقة بما عند الله تعالى ، وقطع النظر عن الاسباب مع العمل بها : ..(٢) ذلك أن الاسباب فى حقيقتها لا عمل لها ، وإن كان العبد قد أمر بطلبها والقيام بها .

ويرى أهل الحقيقة من السالكين ، أن مقام التوكل : من أسمى مقامات المقربين ، وأنه من المقامات التى يصعب فهمها من ناحية العلم،

---

(١) المعجم الوسيط ٢/١٠٩٧ مادة (وكل) .

(٢) أعذب المسالك المحمودية – السبكى ١/٣٥٥

لأنه غامض ، كما أن العمل به صعب جدا ... فعن عمر – رضى الله عنه– أن رسول الله (ﷺ) قال : " لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " (١) .

يقول الإمام الغزالى – رحمه الله تعالى – فى التوكل ومكانته :

" التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والإعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة ، وقدح فى الشرع ، والإعتماد على الاسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا خواص العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق ، فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا " (٢) .

فالتوكل فرع من فروع التوحيد ... والتوحيد الأصل الحقيقى له... ، وصفة من صفات الأنبياء والمرسلين ، وهدية كبرى من هدايا رب العالمين ، وسبب مهم من أسباب السالكين ، وراحة سرمدية للعاقلين ، وحجة قوية للمتمسكين ..

قال ابن مسروق : " التوكل الإستسلام لجريان القضاء والأحكام– أى بأن تفوض أمرك إلى الله تعالى ، وتترك اختيارك – وهو أعلى مقامات التوكل " (٣).

---

(١) رواه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، والحاكم (الجامع الصغير – السيوطى ١٢٩/٢ وصححه) .

(٢) إحياء علوم الدين : الغزالى ٢٣٨/٤ .

(٣) أعذب المسالك المحمودية – السبكى ٢٥٥/١ .

وقيل غير ذلك والمعنى متقارب ....

ويقول الإمام الغزالى فى رد شبهة قد تدور بالعقل فيلتبس الأمر فى معنى التوكل ، ويظن بالقول ما هو مردود ، فيقول : "وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ... ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل نكشف الغطاء عنه ونقول : إنما يظهر تاثير التوكل على حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ،وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالإدخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع السارق ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدوا هذه الفنون الأربعة ، وهو : جلب النافع أو حفظه، أو دفع الضار ، أو قطعه (١) ، وهذه الأمور جميعها لا تخالف حقيقة التوكل كسبا ، أو تدبيرا بالقلب ...

ولقد ربط الإمام الغزالى مقام التوكل بالتوحيد ، وجعله بابا من أبواب الإيمان ، مبينا مراتب التوحيد ليكون السالك على بصيرة من أمره... ، وهذا حق لأن أمره خطير ، ولا يتم علم المعاملة إلا به . فيقول: " للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى : مرتبة قشر القشر ، ومرتبة القشر، ومرتبة اللب ، ومرتبة لب اللب ، فمرتبة قشر القشر من التوحيد هو أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه، أو منكر له كتوحيد المنافقين . ومرتبة القشر : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهواعتقاد العوام ، ومرتبة اللب : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق . وهو مقام المقربين،وذلك أن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن

(١) إحياء علوم الدين : الغزالى ٤/ ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الواحد القهار . ومرتبة لب اللب: أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، ومعناه أن العارف لا يرى إلا واحدا ، فلا يرى نفسه أيضا ... " (١) .

فالتوكل نظام التوحيد ، وجماع الأمر ، وهو من أشرف أحوال المقربين ، قال تعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٢) ، فجعل المتوكل حبيبه ، وألقى عليه محبته ، وقال سبحانه : ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٣) وقال جل شانه : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾ (٤) أى كافيه مما سواه ، ومنجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة، إذا فوض أمره إليه . فمن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه .

ومن الأحاديث النبوية الدالة على سمو مقام التوكل :

ما روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله – (ﷺ) كان يقول : " اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت، وبك خاصمت ، اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون " (٥) ، ففى هذا الدعاء غاية الإستسلام ونهاية العبودية ، والإقرار بالألوهية ، والخروج عن الإعتراض على القدر ، ورجوعه إليه فى كل أموره ، وتكييفه حياته على هذا الأساس، وفى هذا توجيه لنا .

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٤٠ .
(٢) سورة آل عمران من الاية : ١٥٩ .
(٣) سورة إبراهيم من الآية : ١٢ .
(٤) سورة الطلاق من الآية : ٣
(٥) متفق عليه .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى (ﷺ) : " يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل افئدة الطير " (١) ، وفى ذلك إشارة واضحة على عدم الإعتماد على الأسباب دون المسبب ، بل الإعتماد على الله – تعالى – واتخاذ الأسباب انطلاقا منها إلى مسببها ، وهو الله عز وجل ، إذ التوكل متعلق بالقلب الذى يحيا مع الله تعالى ، بدون أى تعلق بسواه ، والحركة بالظاهر – وهى السبب – لا تنافى توكل القلب بعد تحقق العبد أن التقدير للأشياء من الله تعالى .

وعن أبى عمارة البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله (ﷺ) : يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم اسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة ، وان أصبحت أصبحت خيرا " (٢) .

وعن أم المؤمنين أم سلمة ، واسمها هند بنت أبى أمية – رضى الله عنها – أن النبى (ﷺ) كان يقول إذا خرج من بيته ، قال : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضِل أو أُضل ، أو أزِل أو أُزل ، او أظلِم أو أُظلم ، أو أجهل او يُجهل علىّ (٣) .

بعد هذا البيان لمعنى التوكل وحقيقته نستطيع أن نقسم مقام التوكل حسب منازل السائرين إلى ثلاث درجات :

الأولى : وهى تعنى ثقة المتوكل واطمئنانه التام بالموكل الحقيقى وهو الله – عز وجل – ، وتسليم الامر وتفويضه إليه سبحانه ، وهذا لا

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم (الجامع الصغير – السيوطى ٢٠٥/٢ وصححه) .
(٢) متفق عليه .
(٣) حديث صحيح .